الفصل الثانى

صفى الدين الحلى فى عصره

١ – مولده ونسبه

ولد صفى الدين – عبد العزيز بن سرايا الطائى – فى ربيع الأول عام ٦٧٧ هـ فى حلة بابل – أو الحلة الفيحاء – وهى حلة قريبة من الموصل. وقد عناها صفى الدين بقوله فى أبيات كتبها إلى أهله وهو بماردين، فقال:

أَلاَ أَبْلِغْ هُدِيتَ سُماةَ قومى ... بِحِلَّةِ بَابِلٍ عِنْدَ الوُرُودِ (١)
أَلاَ لاَ تشغَلُوا قَلْباً لبُعدى ... فإنى كلَّ يوم فى مَزِيدِ
لِأَنِّى قَدْ حَلَلْتُ حِمَى مُلُوكٍ ... رُبُوعُ عَبيدِهِمْ كَهْفُ الطَّرِيدِ (٢)
فَمَنْ يكُ نازلاً بِحِمَى كُلَيْبٍ ... فإنى قد نزلت حِمَى الأسْوَدِ

وقد تغنى صفى الدين بهذه الحلة وترنم بذكرها فقال:

مَنْ لم تَرَ الحلةَ الفيحاء مُقلَتُه ... فإنه فى انقضاءِ العمرِ مغبونُ
أرضٌ بها سائرُ الأهواءِ قد جُمعت ... كما يُجَمَّعُ فيها الضَّبُّ والنُّونُ (٣)
فالقِدْرُ طافِحَةٌ والريحُ نافِحَةٌ ... والوُرْقُ صادحةٌ والظلُّ موضونُ (٤)
مَا شانَها غيرُ سَعْيِ الجاهلين بها ... كأنها جَنةٌ فيها شياطينُ

ويفهم من شعره أن قبيلته – وهى قبيلة سنبس إحدى قبائل طى – عربية

(١) السماة بضم أوله القوم يخرجون للصيد والمراد السادة والشجعان.

(٢) الربوع جمع ربع وهو الدار. والكهف: الملجأ.

(٣) الضب: دابة كالحرباء – النون: الحوت. والمراد بتجمعهما تجمع الأضداد.

(٤) موضون: مضاعف كثير. والورق الحمام جمع ورقاء.

عريقة ، نمت كثيراً من السادات ، وينمت إليها أبوه وأمه على السواء . وكان لأسرة أمه عصبية بالحلة ممدودة الظل ، وأعمال مجيدة جلبت لها جاهاً وحسباً . وكسبتها سطوة ورياسة . فأحقدت بذلك بعض لداتها ممن ينفسون عليها الزعامة ، وينافسونها فى الجاه والسلطان . فاشتعلت بذلك نار العداوة والبغضاء بين الفريقين وزادها تأججاً ما ورثه هؤلاء العرب عن أسلافهم القدماء من شجاعة وشهامة ، ومكابرة وصرامة ، ومن جاهلية ممقوتة عمياء لا تهدأ إلا بالدمار والأخذ بالثأر .

وعاش صفى الدين بين قومه هؤلاء وتأثر بحوادثهم وظروف حياتهم إلى حد كبير . ثم ألجأته الأحوال إلى النزوح عن بلده ، والاتصال بغير قومه . فاتصل بملوك وسادات فى ربوع العالم الإسلامى ، كان لهم أثر كبير فى نتاجه الأدبى . فنزح إلى ملوك ماردين ، وملك حماة ، وزار بغداد ودمشق والقاهرة والحجاز وغيرها . وعاد أخيراً إلى بغداد ، فتوفى بها عام ٧٥٠ هـ [١] .

٢ ــ ثقافته

لم تفصح كتب الأدب والتاريخ عن مبلغ ثقافة صفى الدين . ولا صرحت بشىء عن دراساته ، سوى أن ابن حجر العسقلانى روى « أن صفى الدين تعانى صناعة الأدب فمهر فى فنون الشعر كلها ، وتعلم المعانى والبيان وصنف فيها »[٢] . ورُوى مثل ذلك عن الصلاح الصفدى وغيره .

والناظر فى ديوان صفى الدين يراه قال عن نفسه فى مقدمته ما نصه : « إنى كنت قبل أن أشب عن الطوق . وأعلم ما دواعى الشوق . بهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً . وامقاً بسبك القريض . كارهاً للكسب بالتقريض » . وروى الصفدى أنه نظم الشعر وهو ابن سبع سنوات .

---

(١) روى أنه ولد عام ٦٧٨ هـ ، وأنه مات سنة ٧٥٢ هـ وقيل ٧٥٤ هـ ، وقيل ٧٥٥ هـ .
(٢) الدرر الكامنة .

ويفهم من هذا وذاك أنه مال منذ حداثة سنه إلى الأدب واللغة ، فعكف على أسفارهما اطلاعاً ودراسة وحفظاً . وأقبل على نظم الشعر هبة وفطرة وصناعة معاً ، فى سن مبكرة . فأجاد وأعجب ، وأفاد وأطرب ، وبلغ الغاية من أشعاره ، والأهداف التى كان يهدف إليها منها ، حتى سار شعره مع الركبان ورددته الأمصار فسبقته بذلك شهرته إليها ، وهو بعدُ فى طور الشباب .

ونظرة يسيرة إلى ديوانه ورسائله ومؤلفاته تفصح لك عن مقدار ما حظى به من الثقافة الأدبية ومبلغ ما قرأ من أشعار السابقين حتى تمثلها فى نفسه واهتضمها . فقد وعى من ألفاظ اللغة وصور تراكيبها مالا عهد لشعراء عصره بمثله . وبذلك صار بينهم نسيج وحده ، وأصبح مالكاً لزمام اللغة والشعر يصرفهما أنى شاء وكيف شاء بلا مشقة ولا جهد ، حتى فيما يبدو منه متكلفاً متعسفاً فيه ، فإنه بذله دون تعب ولا نصب ، ذلك لأنه يتعمده تعمداً . وهو بذلك يبين لنا أنه وعى مذاهب الأدباء ومسالك الشعراء وطامَنَ لنفسه من وعورتها ، فأصبح يجتازها على اختلافها ويسلك سهولها وحزونها عامداً دون أن يضنيه المسير . تبدو لك هذه الظاهرة فى غريب شعره وقريبه ، وفى مبهمه وواضحه ، وفى قصيده المطول ، ومقطّعه القصير . وفى القافية العصية والطيعة .

وقد ملأ جعبته بألوان البديع وشتات المعانى والبيان ، فدرسها دراسة الفقيه الفاهم لا الشاعر الناظم . يدلك على ذلك شيئان : الأول بديعيته التى نظمها فى مدح الرسول عليه السلام وضمن أبياتها ألواناً من البديع بلغت مائة وواحداً وخمسين لوناً . والثانى شرحها ؛ فقد وضع لها شرحاً ميز فيه هذه الألوان البديعية أو البيانية وتحدث عنها حديث العالم . وقد رُوى أنه قرأ قبل نظم البديعية سبعين كتاباً[1] ، وقبل شرحها مائة وأربعين كتاباً[2] .

---

(١) مقدمة البديعية .

(٢) الدرر الكامنة .

٣ ـ من حوادث أسرته

وقد كان لصفى الدين أعمام وأخوال ذوو مكانة فى الحلة ومنهم الصدر « جلال الدين بن محاسن » وهو أكبر أخواله . وكان من ولاة النواحى . آلت إليه مرة ولاية ، فهنأه صفى الدين بقصيدة طلية ، ومنهم « صفى الدين بن محاسن » أخوه . وبنو محاسن فرع من سبنس أيضاً . يقول صفى الدين :

فكيفَ ولَمْ يُنْسبْ زَعِيمٌ لِسَنْبَسٍ ... إلى المجدِ إلاّ كانَ خَالِيَ أوعمّى

وقد كانت هناك حقود وشحناء بين بنى محاسن ، وآل أبى الفضل[١] بسبب التنازع على الرياسة والإمارة بالحلة . فلما انتشرت الفوضى فى بلاد العراق على إثر الخلاف الناشب بين آل هولاكو على ممالكهم فى عهد السلطان غازان ، اضطرب الأمن فى الحلة ووقع النزاع بين قبائلها . وأدّت الأحقاد بين بنى محاسن وآل أبى الفضل إلى أن يغدر آل أبى الفضل صفى الدين بن محاسن ويقتلوه غيلة وهو فى مسجده . فرثاه صفى الدين رثاء حارًّا . وثارت لمقتله ثائرة قومه ، ونزع بهم عرق الوراثة إلى الانتقام والأخذ بالثأر . وكان فى طليعتهم صفى الدين الحلى الذى كان متحمساً تحمساً شديداً . وذلك لمكانته من الشباب والشعر . فنظم القصائد الملتهبة يشعل بها النار ويستحث قومه على القتال والإيقاع بالعدو ، وأهاب بخاله « جلال الدين » أن ينتقم لأخيه أشد انتقام .

ويبدو أن الحرب التى كانت تقوم بين هذه القبائل ، حروب محلية قريبة الشبه بمعارك أهل الصعيد فى أيامنا . وقد وقع القتال بين قوم صفى الدين وبين أعدائهم ، ولبثت الحروب سجالاً حتى استطاع قومه أن يثخنوا فيهم

---

(١) روى ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٦ ما مؤداه : « أن آل فضل قوم رحالة بين الشام والجزيرة وبرية نجد من أرض الحجاز . وأنهم اتصلوا ببعض حكام هذه المناطق ، فولوهم على بعض أحياء العرب ، وأقطعوهم على إصلاح السابلة ما بين الشام والعراق . فاستظهروا برياستهم على آل مراء أعدائهم وغلبوهم على المشاق » . — فلعل آل فضل هؤلاء هم الذين نازعت سلالاتهم بنى محاسن بالحلة ونافسوهم على الولايات .

وينتقموا منهم . وكان صفى الدين فى طليعة المقاتلين فأبدى شجاعة وبسالة كانت من دواعى فخره . وذلك فى واقعة « زوراء العراق » .

وقد سجل هذا النصر فى شعره ، وكان مدداً لفخره بنفسه وقومه .

ولا شك أن صفى الدين قد وجد فى غنى أسرته ومجادتها ، وفى قوتها وعزيمتها ، وفى حوادثها وانتصاراتها ما كان له أكبر أثر فى نفسه وفى أدبه ، وما غذى كبرياءه وأشبع إباءه ، وحفزه إلى التغنى بمجد قومه والفخر بهم وبنفسه ، ووصف حروبهم . وقد أتاحت له هذه النشأة أن يتعلم الفروسية فيركب الخيل ويقاتل بالسيف ويكابد مشاق الحرب ويشارك فيها قومه ، وأن يصبر على شدائد الحوادث ، وأن يجد فى الملمات لذة ومتعة ، وأن يُحبب إليه اجتياز الفلاة وسلوك القفر ما دام ذلك يوصله إلى المجد .

وقد أفسح له كل هذا فى مجال الفخر والتغنى بمآثر الآباء والأجداد ، كما أفسح له فى مجال الوصف والحديث عن السيوف والرماح والخيول وما يتصل بالحروب . كما ساقه إلى ضرب من الهجاء والسخرية هما أشبه بالهجاء السياسى .

وقد ربأت[1] به نشأته تلك عن أن ينزلق إلى مهواة المديح ، والتردى إلى التكسب . ولذلك قال : « وكنت عاهدت نفسى ألا أمدح كريماً وإن جل ، ولا أهجو لئيماً وإن ذل . وذلك للتنزه عن التشبه بذوى السؤال ، والترفع عن التتبع لمثالب الرجال . فكنت لا أنظم شعراً إلا فيما يوجب لى ذكراً أو يجلب لى شكراً »[2] . . .

لم يكن صفى الدين — إذن — مدّاحاً متجولا يعرض شعره على أبواب الملوك والعظماء لقاء عطاء — كما كان معاصره الجمال بن نباتة المصرى — بل كان له من مجادة عنصره وإباء نشأته وكرامة نفسه ، وحرصه على سلامة شعره ، ما يقف سدّاً قويّاً دون هذا التكسب .

غير أننا سنرى أن الأيام كانت أقوى من إرادته ، وأقسى من كبريائه . فدفعته دفعاً إلى الاحتراف بشعره ، والخروج عن دستوره .

---

(١) ربأ به : بعد به .

(٢) راجع مقدمة ديوانه .

٤ ــ ترحله ونزوحه من بلده

كان صفى الدين كثير الترحال دائب الانتقال . وكان يتعاطى التجارة طلباً للرزق ويتجول بسببها ما بين حلب والشام ومصر وماردين وغيرها ويرجع إلى بلده [١] .

ويبدو أن أعداءه بالحلة أقلقوا راحته وأقضوا مضجعه وتهددوا حياته ، فاضطر إلى الفرار بنفسه ، واختار ماردين فاتصل بملوكها واستقرّ بها . ورغب إلى ملوك بنى أرتق أن يعينوه فى منصب ، ويكلوا إليه تدبيج الرسائل .

غير أنه خلال ذلك كان كدأبه كثير الأسفار دائم التجوال ، فتردد على بغداد والموصل ، ومر بدمشق . وزار القاهرة ، ويمم شطر الحجاز فحج وزار ، وعرج على حماة ، إلى غير ذلك من تنقلاته المتعددة .

ونعتقد أنه نزح من الحلة إلى ماردين فى نحو عام [٢] ٧٠٠ هـ وهو فى سن الثالثة والعشرين تقريباً . ويفهم هذا من ديباجة رسالته « التوءمية » إذ قال مبيناً سبب إنشائها : « هذه رسالة أنشأتها بماردين سنة سبعمائة الهلالية . وبنيت عليها إحدى المقامات المنشأة . وذلك حين جرى بحضرة المولى السلطان الملك المنصور نجم الدين أبى الفتح غازى بن أرتق ــ طاب ثراه وقدّس مثواه ــ ذكر أبيات للشيخ العلامة فريد دهره أبى القاسم بن على الحريرى ــ رحمه الله ــ التى أولها : « زُينت زينب بقدّ يقدّ » وعجز المتأخرين عن هذه الصناعة نظماً ونثراً. وكنت أوثر من قبل ، أن أعرفه طرفاً من صورة واقعتنا بالعراق التى أوجبت انتزاحى ، وأعرض بطلب خدمة ببلده مدة مقامى عندهم فى إنشاء بعض الرسائل المعجزة ، بحيث نبين الطبقة من غيرها . فعندها أنشأت هذه الرسالة فى تلك الصناعة . » . . . إلخ .

---

(١) الدرر الكامنة .

(٢) روى اليعقوبى أنه خرج من الحلة فى سنة ٧٠١ هـ . راجع طبعة ديوانه بالنجف .

هذا ويفهم من ديوانه ومن مناسبات قصائده أنه كان بماردين عام ٧٠١ هـ ٧٠٢ هـ ، ٧٣٧ هـ ، ٧٤١ هـ . وأنه زار الموصل مرة عام ٧٠٢ هـ وحج وزار ، ومر فى أثناء عودته من الحجاز سنة ٧٢٣ هـ بالقاهرة — وقيل عام ٧٢٦ هـ . ويبدو أنه مكث بها مدة . ويمم شطر دمشق عام ٧٢٠ هـ ، ثم عام ٧٢٥ هـ بدعوة من كاتبها الكبير الشهاب محمود الحلبى . وأنه زار حماة قبيل عام ٧٣٢ هـ وهو العام الذى مات فيه ملكها المؤيد إسماعيل . وزارها مرة أخرى عام ٧٤٠ هـ . وأنه رحل إلى بغداد غير مرة . وزارها أخيراً فمات بها فى أوائل عام ٧٥٠ هـ . وقيل مات بعد ذلك[1] .

٥ ـ اتصاله ببنى أرتق

يبدو أن أعداء صفى الدين بالحلة ، لكثرة هجائه لهم وتسفيهه إياهم وتأليبه قومه عليهم ، دأبوا على الكيد له ولقومه ومطاردته وترصده ، رغبة فى اغتياله . فكدروا عليه صفو حياته ، وخشى المغبة على نفسه ، وفزع من العاقبة . فنبا به المقام ، وفضل الهجرة من بلده إلى بلد آخر ، كفًّا للأذى وصوناً للنفس . وكان هذا بعد واقعة الزوراء .

وقد بينا أنه كان يتعاطى التجارة ويتجول بين البلدان بسببها . ولا بد أنه عرف ماردين وصادق بعض أهلها . أوسبقته أشعاره إليها ، فمهدت له سبيل المودة والصداقة . هذا ، إلى قربها من بلده نسبيًّا . فاختار الرحيل إليها والاستقرار بها ، والعمل على الاتصال بملوكها ، وهم بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر .

فرحل إليها فى نحو عام ٧٠٠ هـ . واتصل بالملك المنصور مستجيراً به شاكياً له مستدرًّا عطفه . طالباً منه أن يعينه فى وظيفة لإنشاء بعض الرسائل ، فيجد فى ذلك مرتزقاً ومسلاة . واعتمد صفى الدين فى ذلك على ما يعرفه عنه بنو أرتق من مقدرة على نظم الشعر .

---

(١) روى الصفدى أنه مات سنة ٧٥٢ — راجع مقدمة ديوانه طبعة النجف الأشرف . لعل ذلك فى كتاب الصفدى الوافى بالوفيات .

وقد لقيه بنو أرتق لقاء كريماً حافلاً . فاستمعوا لحديثه وشكايته ، ورفعوا مكانته وقربوه إليهم ، ووهبوا له من النعم الجزيلة والمنح الجليلة ، ما ألهج بذكرهم لسانه ، وأبهج بشكرهم بيانه ، ورضيت به نفسه .

وفى ذلك كله يقول صفى الدين : « ثم جرت بالعراق حروب ومحن ، وطالت خطوب ومحن ، أوجبت بعدى عن عرينى ، وهجر أهلى وقرينى ، بعد أن تكمل لى من الأشعار ، ما سبقنى إلى الأمصار ، وحدت به الركبان فى الأسفار . فلما أحسنت إلىّ مساءات الزمان . وأرضانى سخط الحدثان . فحط رحالى بفناء الملوك وبنى الملوك . كهف الغنى والصعلوك . فخر الملوك الأواخر والأوائل ، ملوك ديار بكر بن وائل . الأرتق راتق فتق الدين . جابرى كسر الإسلام والمسلمين . لا زالت أيامهم باسمة الثغور ، ما سرت الريح الجارية . وجرت الروح السارية . وتطاير وَرَقُ الأشجار . وتشاجر وُرْقُ[1] الأطيار .

فَقَيَّدَتْنِى عِنْدَهُمْ أَنْعُمٌ ... هُنَّ قُيُودُ الآمِلِ السَّانِح
وَوَكَّلَتْ فِكْرِى بِمَدْحِى لَهُمْ ... مكارمُ المنصورِ والصَّالحِ[2]

لم يجد صفى الدين هنا بأساً ولا بُداً ، من أن يخرج عن دستوره الذى رسمه لنفسه . فجنح إلى المديح يجزى به اليد البيضاء التى امتدت إليه ، والقلب الكريم الذى عطف عليه ، والصدر الرحيم الذى ضمه إليه . فكان مديحه لهم آية وفاء لا ملتمس عطاء ، وكان لسان شكر لا إيصال أجر .

على أن صفى الدين كان أحياناً يفرق بباب المنصور ما يهبه له ؛ حتى إن المنصور نفسه أنكر عليه ذلك ، فاعتذر صفى الدين إليه اعتذار شاعر . فقال :

فَوَاللهِ مَا فَرَّقْتُ ما جُدْتَ لِى بِهِ ... عَلَى الصَّحْبِ عَنْ تِيهٍ عَرَانِى أَوْ كِبْرِ[3]

---

(١) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .

(٢) راجع مقدمة ديوانه .

(٣) التيه : الكبر . والمراد بسبب التيه .

ولكنني لمّا علمتُ بأنني أُقصّرُ عن أداء حقّكَ بالشكرِ
شرِكتُ جميعَ الصَّحْبِ فيها لعلّها تُساعِدُ في شُكرٍ يقومُ به عُذري

وعاش صفى الدين زمناً طويلاً فى كنف ملوك هذه الدولة ، وبخاصة المنصور وابنه الصالح . وكان ذا مكانة ملحوظة لديهم ، وذا رأى واضح فى توجيه سياستهم وتحريضهم على الذود عن بلادهم وقتال أعدائهم والبطش بهم ، والنهوض لمواجهتهم ومناجزتهم .

هذا الاتجاه الجديد الذى اتجهه صفى الدين فى بلاط بنى أرتق ، هو فى الواقع ، امتداد لاتجاهه القديم ، أيام كان يحرض خاله جلال الدين على البطش بأعداء قومه . وهما اتجاهان متسقان مع نفسية صفى الدين ونشأته . ولهذا كان فى شعره يصدر ببراعة وروعة عن طبيعة حافلة وسجية آهلة ، وكأنه كان يحرض قومه أو خاله .

والملك الصالح الأرتقى تولى الملك بعد أخيه العادل عام ٧١٠ هـ . ولم يمكث العادل فى ملكه إلا قليلاً . فلما تولى الصالح توثقت عرا المودة والألفة بينه وبين صفى الدين ، وأغدق عليه ، حتى سماه صفى الدين « ولى نعمته » . ونظم فيه جملة من قصائده هى إحدى مجاميعه الحسان ، وتسمى « الصالحيات » . كما نظم من قبل فى أبيه المنصور « المنصوريات » و « الأرتقيات » . وإن كان له فيهما غير ذلك من المدائح .

واندمج صفى الدين فى حاشية الصالح حتى غدا من جلاّسه وشهود محفله . وأمره الصالح مرة بلزوم مجلسه شهراً متوالى الأيام فى فصل الربيع ، للشرب بقصوره بماردين . فنظم صفى الدين فى ذلك جملة من المقطوعات الطريفة .

ولم يتصل بملوك هذه الدولة فحسب ، بل اتصل بأمرائها وآل بيت ملكها ومنهم ناصر الدين محمد بن الملك المنصور الذى كان صفى الدين يمدحه ويستهديه الشراب .

على هذا اللون من العيش أقام صفى الدين في دولة بنى أرتق ، ناعم البال قليل الشكاية ميسر الرزق ممدود الصحبة . ولهذا نظم فيهم أطيب شعره وأعذبه ، وأرقه وأطربه ، وأكثره افتناناً ، وأوسعه تلاعباً .

ولا غرابة أن حسده أهل ديار بكر على منزلته تلك ، فقال يخاطب الملك المنصور :

حَسَدَتْ أُهَيْلُ دِيَارِ بَكْرٍ مَنْطِقِي ... فِيهَا كَمَا حَسَدَ الْهَزَارَ اللَّقْلَقُ(١)

أَعْيَتْ أَكَابِرَهُمْ أَصَاغِرُ لَفْظِهَا ... وَلَرُبَّمَا أَعْيَا الرِّخَاخَ الْبَيْذَقُ(٢)

٦ ـ اتصاله بالناصر بن قلاوون

وممن اتصل بهم صفى الدين ، الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ، وكان ذلك عام ٧٢٣ هـ كما ذكر فى ديوانه . وكان صفى الدين عائداً من تأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه السلام . فعرج على مصر فى أوبته فلقى بها حفاوة بالغة وترحيباً عظيماً . وكان لا يزال بصفى الدين خوف من العودة إلى بلاده .

وقد نوهنا بأن عصر الناصر بن قلاوون كان أزهى فترات العصر المملوكى بالرجال وأملأها بالعلماء وأحفلها بالأدباء والشعراء والمنشئين .

وقد رحب علاء الدين بن الأثير ــ وهو الكاتب المنشئ الكبير وكاتب سر الناصر ــ بمقدم صفى الدين وقدمه إلى السلطان الناصر .

وأشار ابن الأثير على صفى الدين بأن يجمع ديوان شعره ، وكان شعره مشتتاً لم يُعن أحد بلمّه . وفى ذلك يقول صفى الدين : « فلما منّ الله علىّ بقضاء حجة الإسلام وزيارة قبر النبي عليه السلام ، قذف بى خوف بلادى إلى الديار المصرية . وأهلت للمثول فى الحضرة الشريفة الملكية الناصرية . وشملنى من

(١) الهزار : طائر قيل إنه العندليب ، جميل الصوت . واللقلق واللقلاق : طائر كالأوز طويل الأرجل ممدود المنقار ولعله (البشروش) .

(٢) الرخ والبيذق من قطع الشطرنج .

الإنعام ما فاجأنى ابتداء . ولم أملك له خبراً . ألزمنى المروءة بمكافأة تلك الحقوق ورأيت كفرانها كالعقوق . وأن تكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين . فنظمت فى معاليه ما طاب لفظه ومعانيه . وظهرت آيات القوى فيه ، من تمكن سبكه وقوافيه . فلما صادفت وسائلى فيه قبولا . وهبت ريح سعدها قبولا ، أشار رئيس وزرائه وزعيم كتاب إنشائه عن إشارته العالية أن أجمع له جزءاً من جد شعرى وهزله ، ورقيق لفظى وجزله . وأن أبوبه أبين تبويب وأرتبه أحسن ترتيب . ليكون ديواناً للمحاضرة ، ومجموعاً للمذاكرة . فأجبت بالسمع والطاعة . واستحضرت ما حضرنى حسب الاستطاعة . » .

ونستنبط من عبارته أن الخوف من العودة إلى بلاده كان لا يزال يطارده ، مع أن سنه بلغت إذ ذاك نحواً من ست وأربعين سنة . وأنه مدح الملك الناصر جزاء له على أنعمه لا استدراراً لجداه[1] ولا طلباً لنداه . وبهذا يحافظ صفى الدين على مبدئه . . ! وأنه جمع فى ديوانه هذا ما حضره من شعره حسب الاستطاعة فليس ما جمعه فيه — إذن — كل شعره . ولو جمع كله لكان للأدب والتاريخ منه غنم عظيم .

ونلحظ من عبارته أيضاً مقدار ما لقيه من حفاوة الناصر وكاتب سره ابن الأثير . على أن أثر ابن الأثير فيه لم يقتصر على أنه دفعه إلى جمع ديوان شعره ، بل تعداه إلى نواح من النشاط أخرى . فكثيراً ما اقترح عليه النظم فنظم ، وهزه للقريض فجاد وأجاد .

ومن ذلك أنه ذكر له مرة بيتين للشاب الظريف — أحد شعراء مصر المتوفى عام ٦٨٨ هـ — وفيهما جناس تام لطيف لا يتهيأ مثله لغيره . والجناس فيهما تام بين الضرب والعروض . — آخر شطرى كل بيت — وهما :

أحسنُ كُلِّ الناسِ وَجْهاً وَفَماً ... إنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِالْحُسْنِ فَمَنْ
حَكَى الغَزَالَ مُقْلَةً وَلفْتَةً ... مَنْ ذَا رَآهُ مُقْبِلاً وَلاَ افْتَتَنْ

---

(١) الجدا : النوال والعطاء .

فنظم صفى الدين على هذا الطراز أرجوزة فى واحد وثلاثين بيتاً ، جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه جناساً تامًّا ومدح بها الناصر بن قلاوون، قال :

كَمْ قَدْ أَفَضْنَا مِنْ دُمُوعٍ وَدِماً عَلَى رُسُومٍ للدِّيارِ وَدِمَنْ (١)
وكَمْ قَضَيْنَا لِلْبُكَاءِ مَنْسَكاً لَمَّا تَذَكَّرْنَا بِهِنَّ مَنْ سَكَنْ (٢)

ومنها فى مدح الناصر :

يَا مَالِكاً فَاقَ الْمُلُوكَ وَرَعاً إِنْ شَانَ أَهْلَ الْمُلْكِ طَيْشٌ ورعَنْ (٣)
أَكْسَبْتَنِي بِالْقُرْبِ مَجْدًا وعَلاً فَصُغْتُ فيكَ الْمَدْحَ سِرًّا وعَلَنْ (٤)

وأنشده علاء الدين أبياتاً لأحد المغاربة كان معجباً بها ، — ولعل ذلك لغرابة قافيتها — ومنها :

كاتِمَ الدَّمعَ هَوَاهُ فَوَشَى وَسَقَاه الحبُّ كَأْساً فَانْتَشَى

وسأله أن ينظم أبياتاً على منهاجها . فاستمهله يومين ، ثم نظم قصيدة من أربعين بيتاً فى مدح علاء الدين ، من البحر والروى ، قدمها بالغزل ، ومنها :

كَرِّرِ اللَّوْمَ عَلَيْهِ إنْ تَشَا فَهْوَ صَبٌّ بِحُمَيَّاهُ انْتَشَى (٥)
هَزَّهُ بل أَزَّهُ ذِكْرُ الحِمَى فَتَثَنَّى طرَباً بل رَعَشا (٦)
كَادَ أن يَقْضِيَ فجددْتُ له ذِكْرَ سُكَّانِ الحِمَى فانتعشا (٧)

ومنها فى مدح علاء الدين :

---

(١) الدمن : جمع دمنة وهى آثار الدار وبقاياها .
(٢) المنسك : أصله العبادة وكل حق لله تعالى . وهنا حق البكاء أو الديار .
(٣) الورع : التقوى والخوف من الله . والرعن : الحمق والبطش .
(٤) العلا : العلاء وهو الرفعة . قصره ونونه لضرورة الشعر .
(٥) الحميا : سورة الكأس وشدتها أو إسكارها أو أخذها بالرأس . انتشى : سكر .
(٦) أزه : أشعله ، يقال أز النار ، إذا أوقدها .
(٧) أن يقضى : أن يموت .

كاتِبُ السرِّ الذى فى عصره ... سرُّ دَسْتِ الملِك يوما مَا فَشَا (١)
يقظُ الآراء مسلوبُ الكرى ... مُسْتجيشُ العزم مَتْعُوبُ الوُشا (٢)
فالأمانى من عَطــــاه تُرتَجَى ... والمَنَايَا من سُطَاه تُخْتَشَى (٣)

ولصفى الدين فى ديوانه ثلاث قصائد مدح بها الناصر بن قلاوون وتسمى « الناصريات » منها النونية التى أشرنا إليها . ومنها قصيدة بائية عارض بها بائية للمتنبى ، والثالثة نونية أيضاً نظمها بمناسبة عيد كسر الخليج .

٧ ــ اتصاله بالمؤيد صاحب حماة ، وابنه

وكان صفى الدين يتردد على حماة ، فى زمان ملكها المؤيد إسماعيل . وقد أشرنا إلى ما كان يتحلى به هذا الرجل من همة وشهامة ، ومن علم وأدب . فلقى صفى الدين من لدنه حفاوة بالغة ولقاء كريماً .

ولا ندرى بالضبط متى اتصل بالمؤيد ، ولا متى رحل إليه ، أو تردد على عاصمته . غير أن ذلك ، بلا ريب ، كان قبل عام ٧٣٢ هـ ، العام الذى توفى فيه المؤيد .

قيل إن المؤيد أهدى إليه وبرَّ فى الإهداء ، وأعطاه فأجزل فى العطاء . ورتب له مرتباً يكفيه طول إقامته .

وفى ديوان صفى الدين قصيدة نونية وموشحتان وعدة مقطوعات فى مدح الملك المؤيد وشكره .

واتصل صفى الدين بعد وفاة المؤيد بابنه الملك الأفضل عقب اعتلائه عرش أبيه واختيار الملك الناصر له « نائباً » على حماة بدلا منه . فهنأه بقصيدة نونية ذكر أحبابه فى صدرها ، ورثى المؤيد فى أعقابها وذلك عام ٧٣٣ هـ . وله فى

---

(١) الدست : مرتبة جلوس الملك والمراد مجلسه . ومنه سمى كتاب الدست لأنهم يجلسون مع السلطان .

(٢) الوشا : الوشاة أى النمامون . حذف التاء للشعر .

(٣) السطا : كلمة شاعت حينذاك بمعنى السطوة وليس اشتقاقها عربياً وقد تكون جمع سطوة مثل خطوة وخطا .

مدحه وتهنئته وشكره قصائد وموشحات ، ومقطعات أخرى .

ومن الحق علينا أن نذكر أن جمال الدين بن نباتة المصرى — معاصر صفى الدين وندّه فى ميدان الشعر وزميله فى ود المؤيد وإكرامه ، والأفضل واهتمامه — كان أكثر شعراً من صفى الدين ، فى مدح هذين الملكين ، وكان أشرق ديباجه وأمتع أداء وأكرم لساناً وأبدع تصويراً . وهو صاحب القصيدة البديعة التى هنأ بها الملك الأفضل باعتلائه عرش أبيه ، وعزاه بفقده . فجمع بذلك بين فنَّىْ التهنئة والتعزية فى معظم أبياتها بلباقة نادرة . وهى التى قال فى مطلعها :

هَنَاءً مَحَا ذَاكَ العَزَاءَ المُقَدَّمَا فَمَا عُبِسَ المَحْزُونُ حَتَّى تَبَسَّمَا

ويؤاخذ صفى الدين بمطلع قصيدته فى تهنئة الأفضل . والمطلع — حقاً — فى الغزل وذكر الحب ، ولكن إذا علمنا أن عرش حماة لم يكن وراثياً ، وأن حماة كانت إحدى نيابات الدولة المصرية ، وأن وصول الأفضل إلى عرشها مكان أبيه كان رهناً بمشيئة الناصر بن قلاوون ملك مصر ، وأنه انتظر حتى جاءه أمر الناصر بن قلاوون ملك مصر بتعيينه ، وجعله « ملكاً » كما كان أبوه ، وأنه كان يتوجس خيفة من أن يحرمه الناصر هذا الملك . — أقول إذا لاحظنا ذلك شعرنا بشىء من النبو فى مطلع صفى الدين .

لم يقتصر أثر اتصال صفى الدين بملكى حماة على المدح والرثاء والتعزية ، بل كثيراً ما كان المؤيد — مثلا — يحرك شاعرية صفى الدين ، ويثير مقدرته . إلى النظم فى مناسبات متعددة .

ومن ذلك ما روى من أن الملك المؤيد نفسه اخترع وزناً شعرياً جديداً ، واقترح على صفى الدين أن ينظم منه موشحاً امتحاناً له وكشفاً عن كفايته . فنظم صفى الدين منه موشحة طويلة غزلية سنشير إليها .

٨ — صداقاته

لا بدع ، وقد شهدنا بعض نواحى النشاط فى حياة صفى الدين ، أن رأيناه كثير الإخوان وافر الخلان . فإن من كان مثله كثير الترحال عالى الكعب فى

الأدب نظمه ونثره ، حتى فتح له أدبه أبواب الملوك وهيأ له فى مجالسهم وحواشيهم مكاناً مرموقاً ، كان جديراً بأن يسعى إليه الأصدقاء ، وأن تعقد الأيام بينه وبين علية جيله أواصر المحبة والإخاء ، سواء منهم أولو الفضل والعلم ، وأهل الأدب والشعر ، فضلاً عن أرباب السلطان والجاه .

ولم تقص علينا كتب التاريخ أنباء صداقاته كاملة صريحة واضحة رتيبة . ولكن نظرة إلى ديوان شعره توحى إليك بما أشرنا إليه من كثرة إخوانه ووفرة خلانه .

وقد كان لهذه الصداقات أثرها الكبير فى شحذ قريحته واستدرار أسلته ، وثروة أدبه . وفيما نظمه من ضروب الإخوانيات كالشوق والعتاب والاعتذار والاستعطاف والملاغزة والاستهداء والشكر والتمادح والاستدعاء والمماجنة ، وغير ذلك ، دليل صادق على ما نقول .

وممن انعقدت بينه وبينهم الصحبة من أكابر أدباء عصره : جمال الدين بن نباتة المصرى الشاعر الكبير . وفتح الدين بن سيد الناس الأديب المؤرخ . وأبو حيان الأندلسى الفقيه النحوى . وصلاح الدين الصفدى الأديب المؤرخ . وشهاب الدين محمود الحلبي المنشئ البليغ . وفخر الدين هبة الله كاتب السر بحلب . وغيرهم .

وفى عصر صفى الدين كانت العلاقات الإخوانية ذات أثر بعيد المدى فى النتاج الأدبى ، اتخذتها النزعة الأدبية والفنية الشاعرة وسيلة من وسائلها إلى الحياة والينع والازدهار .

وكان جمال الدين بن نباتة قد أرسل إلى بعض أصدقائه رسائل ، فلم يجد صفى الدين من بينها رسالة له ، فبعث إلى ابن نباتة فى ذلك يعاتبه ويستمنحه الرد . وقال فى المطلع يذكر أحباءه وفراقهم :

مَنْ لِصَبٍّ أَدْنَى البِعَادُ وَفَاهْ ... إِذْ عَدَاهُ وَصْلُ الحبيبِ وَفَاتَهْ[1]

---

(١) الوفاة فى الشطر الأول : الموت . وفاته فى الشطر الثانى : تركه وعداه وتجاوزه . بينهما جناس تام .

فَاتَهُ مِنْ لِقَا الأحِبـةِ عيشٌ ... كانَ يَخْشَى قبلَ الوفاةِ فَوَاتَهْ
كان ثَبْتاً قبلَ التفرُّقِ لـكنْ ... زَعْزَعَتْ رَوْعَةُ الفِراقِ ثَبَاتَهْ(١)

وبعد أن مدحه وأثنى عليه وعلى شعره ، قال :

ورَسُولٍ مِنكُمْ تَعَجَّبْتُ مِنهُ ... حِينَ حَانَتْ مِنِّى إليهِ التفاتَهْ
جاءَ يُهدِى إلى الصحابِ طُرُوساً ... ليسَ للعبدِ بَيْنَهُنَّ حُتَاتَهْ(٢)
فتَأمَّلْتُ فى يديهِ خُطُـوطاً ... أذكَرَتْنِى مِنْ رَبِّهَا أوْقَاتَهْ(٣)
لو بَعَثْتُمْ للعَبْدِ فيها سَحَاةً ... لأعادتْ بَعدَ المَمَاتِ حَيَاتَهْ(٤)
فتفضلْ بالأنسِ واهدِ إلى عبـدِكَ مِنْ مِسْكِكَ الزكِىِّ فُتَاتَهْ(٥)
لَكَ مِن وافرِ العُلُومِ نِصابٌ ... فاجْعَلِ الردَّ للجَوَابِ زكاتَهْ(٦)

فرد عليه ابن نباتة ردًّا شعريًّا رقيقاً من البحر والروى ، بادله فيه ثناء بثناء ، ومودة بمودة ، ويتعلل من عدم مكاتبته . قال :

مَا لِظبى الحِمَى إليـهِ التِفَاتَهْ ... بَعْدَ مَا كَدَّرَ المشيبُ حَيَاتَهْ
لَهِـجٌ بالهوى وإنْ نفرَتْ أيـدى الليالى غزالَهُ ومَهَاتَهْ(٧)
كُلَّما قِيلَ قدْ سَلاَ عَنْ فتاةٍ ... عَادَهُ الحبُّ فاستجدَّ فَتَاتَهْ .. الخ

ويشهد الذوق برقة ابن نباتة وعذوبة رده وحلاوة عبارته ، وفوقه فى هذا على صفى الدين . على أنهما فحلا عصرهما بغير منازع .

وعلى هذا الغرار مضت صداقات صفى الدين .

---

(١) الثبت : الثابت .

(٢) الطروس : جمع طرس بكسر الطاء ، وهو الصحيفة — والحتاتة : الدقاق — بضم الدال — المتحات المتفتت .

(٣) كان الجمال بن نباتة حسن الخط . فتذكر صفى الدين بخطوطه فى رسائله أوقاته الماضية .

(٤) السحاة : الناحية والجانب . وسحا الطين قشره وجرفه . والمراد هنا قليل من السطور أو الكلمات .

(٥) فتات المسك : ما تفتت منه وأهد مسهلة الهمزة .

(٦) نصاب الزكاة : حدها الذى تجب عند اكتماله .

(٧) اللهج : المغرى بالشيء الثابر عليه . والمهاة : البقرة الوحشية ، ويريد بها الحسناء العين .